

# حضارة الإسلام في عيون غربية !

ليس في العالم دارس للتاريخ أو الدين أو الأدب الإسلامي، لا يعتمد على ما كتبه (السير هاملتون جب Hamilton Gibb) باعتباره من أهم المصادر الغربية في هذه المجالات. وهو من كبار المستشرقين الذين تخصصوا في التراث الإسلامي، وشغل عدة مناصب مهمة أسهم من خلالها في تصحيح نظرة الغرب إلى الإسلام والمسلمين. كان أستاذا للدراسات العربية والإسلامية في جامعة أكسفورد. وطوال الفترة من ١٩٣٠ حتى ١٩٥٥ ظل هو المحرر للطبعة الإنجليزية من الموسوعة الإسلامية، وبعد ذلك أصبح مديرا لمركز دراسات الشرق الأوسط. وتقديرا لمركزه العلمي منحتة ملكة بريطانيا لقب (سير) في سنة ١٩٥٤. وكان بالإضافة إلى ذلك عضوا أصيلا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وعضوا مراسلا في المجمع العلمي بدمشق، والمجمع العلمي العراقي، وله عدد كبير من المؤلفات والمقالات درس فيها الحضارة الإسلامية في قلب العالم الإسلامي وفي غرب آسيا وشبه القارة الهندية وأندونيسيا والبلاد الممتدة من جنوب روسيا إلى الصين.

ويلحظ هاملتون جب أن التاريخ الإسلامي سار في طريق عكس الطريق الذي سار فيه التاريخ الأوروبي على الرغم من أن كليهما قام على أنقاض الإمبراطورية الرومانية. فقد عاشت أوروبا عدة قرون من الفوضى والغزوات البربرية إلى أن وصلت إلى الاستقرار وبدأت تقدمها، بينما أقام الإسلام بسرعة غربية إمبراطورية جديدة، والفضل في ذلك يرجع إلى الجهود التي بذلها المسلمون لحماية الدين الإسلامي في وجه التحديات الداخلية والخارجية، والوحدة الدينية والثقافية في العالم الإسلامي على اتساعه.

ويرجع هاملتون جب قوة الدولة الإسلامية إلى تعاليم الإسلام التي قامت على مبادئ الأخلاق وترسيخ معنى الأخوة بين أفراد الجماعة الإسلامية وتأكيد المساواة بينهم من حيث القيمة الشخصية دون نظر إلى الطبقة التي ينتمون إليها، أو الثروة والمكانة.. وكان لمبدأ (لا فرق بين عربي وأعجمي)

مفعول السحر في تماسك المجتمع الإسلامي، كما كان لاحترام الإسلام للديانات السابقة عليه وعدم اضهاد أصحاب العقائد الأخرى أثر كبير في الخصوبة التي ميزت الحضارة الإسلامية. كما كان التوسع الكبير في الصناعة والتجارة قد أوجد شبكة من المدن فيها حياة مدنية بالغة التقدم. فيها فئات من التجار الأثرياء، تحيط بأحوال العالم، وتمتلك الذكاء والمبادرة، وفيها أيضا فئات من العلماء والمثقفين أسدوا للثقافة الإسلامية خدمة جليلة بترجمة العلوم والفلسفة اليونانية إلى الثقافة ونبغ علماء المسلمين في مجالات كثيرة مثل الفيزياء، والفلك، والكيمياء، والجغرافيا. وانتشرت العلوم الإسلامية في فترة قصيرة، وامتدت إلى كل جزء من العالم الإسلامي دون أن تعوق انتشارها الحدود السياسية أو الجغرافية، وظهرت في المجتمعات الإسلامية مدارس فكرية وفقهية وعلمية، وأنشئت مكتبات كبيرة، ومستشفيات، ومراسد، وذابت الفوارق بين العرب وغير العرب وأصبحوا جميعا مسلمين فقط، بل وضعف أثر الفوارق بين المسلمين وغير المسلمين، فاشترك علماء اليهود والنصارى في جميع وجوه النشاط الفكري مع العلماء المسلمين سواء بسواء، وكان لهذه المشاركة أثرها في مكانتهم الاجتماعية، فقد فتحت لهم الطريق إلى المناصب الرفيعة والوظائف العامة.

هذا التوسع الفكري في الدولة الإسلامية أدى إلى اتساع في نطاق العلوم وامتد إلى الفنون، والأدب، والعمارة.. وتم تكوين جيوش قوية. والمهم أن الإسلام كان بالنسبة للمسلمين معناه (تصور ديني للحياة) وكان المسلم مؤمنا بالإسلام دون أن يبحث عن الدليل أو الإثبات، أو يستخدم التحليل العقلي أو المنطقي، وهذا هو الفارق بين المسلم والإنسان الغربي الذي ورث الفكر الإنجليزي العقلاني أو الفكر الألماني، فهذا الإنسان الغربي لا يصدق إلا ما يمكن إدراكه بالحواس والتجربة والدليل العقلي، وهذا ما جعل أحكامه الدينية شديدة الاختلال.



وفي رأى هاملتون جب أن الحج كان له تأثير كبير في توحيد المسلمين، لأن احتشاد جموع منهم في وقت واحد كل عام واشتراكهم في أداء شعائر دينية واحدة في أماكن وأوقات محددة يولد لديهم شعورا بسمو ديني ويقوى الانتماء بينهم. ويرجع إلى الإسلام الفضل في بلورة فكرة (الله) التي كانت غامضة ومضطربة في الديانات السابقة عليه، وكانت الثورة التي حققها الإسلام هي رفع فكرة (الله) إلى مرتبة عالية، منزهة عن الشبيه، ولم يكتف بأن يعتبر الله (الإله الأعلى) بل إنه (الواحد الأحد الصمد) خالق السموات والأرض وما بينهما. أحكم الحاكمين الذي سيحاسب الجميع على ما كسبته أيديهم، وليس كمثله شيء، وهو السميع حتى للنجوى والهدس بين اثنين، والبصير بما تخفيه الصدور. هذا المفهوم لم يكن موجودا على الإطلاق، ولم يصل إليه العقل الإنساني إلا بالإسلام. وبهذا المفهوم أصبح الأفق الديني للعرب ساميا فوق المحسوسات والأشياء المنظورة، وارتفع إدراكهم إلى الإيمان بذات إلهية لا تدركها الأبصار وهي تدرك الأبصار، ذات إلهية مجردة قادرة على كل شيء.. وهذا المفهوم

الناسمى أدى إلى بناء العقيدة على أسس جديدة مختلفة عن الأسس التى قامت عليها العقائد السابقة، ومن الإيمان بالله بدأ الإسلام خطوة خطوة فى بناء هذه العقيدة الدينية وما قام عليها من مبادئ وقيم أخلاقية واجتماعية امتدت إلى تنظيم علاقات المسلمين وأحوالهم، من الصلاة والعبادات، إلى أصوب التجارة والقروض والمعاملات، إلى الأحوال الشخصية بتنظيم قواعد الزواج والطلاق والميراث.. إلخ. ويمثل القرآن سجلا لهذا التدرج فى إعادة بناء الفكر الدينى والحياة الاجتماعية.

ويكشف هاملتون جب عن أن الإسلام استطاع بما يشبه المعجزة استئصال العادات والأفكار والطقوس البدائية التى كانت سائدة بين العرب، وأن بينى وقيم هذا البناء الروحى والسلوكى على أساس توحيدى وإيجابى للكون وما فيه. وقد اكتسبت كلمة (التقوى) معانى جديدة فى الإسلام، فقد اكتسبت معنى الخوف من عذاب الآخرة واقتربت أيضا بلفظة البر لتدل على العلاقة بالله التى تنجم عن الطاعة وتكون حافزا لأعمال البر كما فى الآية: ﴿وَعَاوِزُوا عَلَى الْإِيمَانِ وَالنَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوِزُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة ٢) والآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا تَنجِيئُكُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَسْجُوا بِالْإِيمَانِ وَالنَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (المجادلة ٩). ويكرر هاملتون جب أن الإسلام يجعل المسلم يشعر بالخير الإلهى ويتجه بالشكر لله فى كل لحظة، ولذلك يعيش المسلم بين الرهبة والتقوى والشكر تجاه الله، ولذلك تكرر فى القرآن دعوة المسلمين إلى (الذكر) ومما يسهل الذكر أن تصحبه منبهات من حركات منظمة فى أوقات معينة، ولهذا فإن التقوى والبر يشملان أداء الصلاة الموقوتة. والصلاة بما فيها من ركوع وسجود وقيام تغرس فى نفس المسلم التأمل والخشوع والتواضع وإسلام الوجه لله، وتغرس فيه أيضا الحب والطاعة والإخلاص.. ويقول هاملتون جب: إن الإيمان - فى مفهوم الإسلام - هو شعور فى القلب والعمل هو الدليل عليه، ولذلك فإن الإسلام لا يطلب من المؤمنين به التفرغ للعبادات فقط، بل يطالبهم أيضا بالعمل فى الدنيا بما يقتضيه الإيمان، أى أن يكون العمل مرتبطا بالخير وليس بالشر. وتعريف (البر) شامل لكل أفعال الخير وهذا المفهوم انفرد به الإسلام: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوقُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبُيُوتِ وَالصَّرَّاءِ وَالصَّرَائِءِ وَالَّذِينَ صَدَّقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة ١٧٧).

هذه هى الرسالة التى جاءت فى القرآن إلى المسلمين.. وهى - كما يقول هاملتون جب - دليل على أن الإسلام ينظم علاقة الإنسان بالله، كما ينظم حياته وعلاقاته مع غيره من الناس. والقرآن يحرك قلوب الناس بالشعور الروحى وينظم حياتهم أيضا.

والإعجاز فى القرآن - كما يقول - يظهر فى خصائصه الفنية والجمالية التى لا مثيل لها، بما يكاد يشبه السحر فى نظم الألفاظ، فتحدث صدى يتردد فى النفس والعقل، وتسمو بالروح، وبالإضافة إلى ذلك فإن القرآن فيه من الإعجاز ما يتكشف منه فى كل زمن أشياء جديدة لم يكن يدركها المسلمون قبل ذلك، مما يعنى أن عطاءه متجدد، وأنه يقدم لكل جيل ولكل زمن ما يناسبه.. ويضيف هاملتون جب: وليس ذلك كل شىء بل ترتبط شخصية محمد - صلى الله عليه وسلم - مرتبطة ارتباطا لا انفصام له بالقرآن بروابط من المشاعر التى يسبغها الحب وتكمل القدرة العقلية وتجذب الشعور..

ويتوقف هاملتون جب عند ظاهرة إجلال الرسول - صلى الله عليه وسلم - على نحو لا مثيل له، فيقول: إن هذا الإجلال شعور طبيعى لدى المسلم منذ بداية الرسالة، وحتى اليوم، وبمرور الزمن يزيد هذا الشعور ولا ينقص، ومشاعر المسلمين تجاه رسولهم لا تنحصر فى الإجلال فقط.. بل تتجاوزه إلى العلاقة الشخصية من الحب، والحرص على الاقتداء به حتى فى التفاصيل من سلوكه اليومي، مع تسليم المسلم بأن محمدا - صلى الله عليه وسلم - كان رجلا.. إنسانا.. بشرا.. وهو فى نفس الوقت نموذج الإنسان المثالى الذى يود كل مسلم أن يفعل ما كان يفعله، ويقول هاملتون جب: إن حرارة ذلك الشعور الشخصى نحو الرسول - صلى الله عليه وسلم - كانت دائما أقوى عنصر فى الدين عند الجماهير.

وكان ذلك سببا فى تحرى علماء الحديث لأحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - لاكتشاف الصحيح منها وغير الصحيح. ألف المسلمون كتبا كثيرة عن شمائل النبی - صلى الله عليه وسلم - نثرا وشعرا، وهناك الكثير من الدائح النبوية والأناشيد الصوفية وفيه من قوة العاطفة ما بأسر العقل والقلب. وأيضا فإن الاحتفال بمولد النبی - صلى الله عليه وسلم -، وذكرى الهجرة والإسراء والمعراج، دليل آخر على عاطفة الحب الجارفة التى تميز علاقة المسلمين بنبيهم.



ويتحدث هاملتون جب عن القرآن باحترام يندر أن نجد مثيله من كتاب الغرب، فهو يقول: إن القرآن هو المنبع الذى يعود إليه المسلم بين الحين والحين لينعش رؤاه الروحية، وإنه هو المصدر الذى استمد منه علم الأخلاق وعلم الكلام الإسلامى، وإنه يهيئ للتفكير الدينى مثلا عليا جديدة، وإنه يعيد توجيه الحياة الدينية إذ ينصب أمامها أهدافا جديدة.. ويضيف إلى ذلك أن القرآن يضع للمسلم تنظيما وضبطا للذات الفردية، ويؤسس ملامح مجتمع أخلاقى، ونلاحظ ملامح هذا المجتمع الإسلامى إلى اليوم، والأخلاق فيه آتية عن طريق الوحي وتستمد قوتها من الإيمان بأنها تمثل إرادة الله، كما وضع قواعد العلاقات الأساسية فى المجتمع كالزواج والقرابة والميراث والنشاط الاقتصادى

والحرب، ويفصل الحديث ما أجمله القرآن لإقامة (المجتمع الأخلاقي) وتنظيم الحياة والعلاقات الاجتماعية، وسوف نجد عندما ندرس الشريعة الإسلامية أنها أثمرت هذا المجتمع الأخلاقي القائم على القرآن والسنة، وسنجد أن هذا التشريع الإسلامى يحدد واجبات المسلم، وهذه الواجبات نوعان: واجبات نحو الله بالإيمان الصحيح وأداء الفروض الدينية، وواجبات نحو أفراد المجتمع، فالتشريع الإسلامى له غاية قلبية هي الإيمان الصحيح، وغاية عملية هي تنظيم حياة المسلمين فى الأحوال الشخصية والتعاملات الاقتصادية، وكذلك فإن أهم ما يميز الشريعة الإسلامية هو التدرج فى الأحكام، فليس هناك حُكْمَانٌ فقط هما الحلال والحرام، ولكن بين هذين الطرفين درجات خمس هي: الواجب، والمندوب، والمباح، والمكروه، والمحرّم.

وهذا يعنى أن علماء الدين وهم يحكمون على الشئء بأنه حلال أو حرام يخطئون إذا لم يحددوا موقعه فى هذا التدرج.

ومن أهم مزايا التشريع الإسلامى أنه ثمرة جهود العلماء المسلمين فى مجالات عديدة منها علم التفسير، وعلم الحديث، واللغة، والتاريخ. وقد أسهم العلماء المسلمون بتخصصاتهم المختلفة فى مناقشة القضايا التشريعية، ولا نجد لذلك مثيلاً فى أية شريعة أخرى.. لا نجد مثل هذا التغلغل العميق، وهذا التركيز الفكرى حول المسائل الفقهية والتشريبية، مع التزام الجميع بمصدر واحد غير مسموح بتجاوزه، يختلف العلماء فى كل شئء، وفى النهاية فإن مصدرهم الأساسى واحد يحتكمون إليه وهو القرآن، فإذا ورد نص صريح فى أمر لا يستطيع أحد أن يجادل فيه، وكلهم خاضع لتلك القوة العليا، وقد جعلهم هذا الولاء المشترك لتلك القوة قادرين على تجاوز الخلافات المذهبية التى نتجت عن الخلافات السياسية والفكرية، وحتى عندما جاءت مرحلة ظهر فيها الفقه الشيعى وانفصل عن الفقه السنى، فإننا لا نكاد نفرق بينهما، لأن هناك وحدة تجمعهما هي القرآن، وهو المرجع الأساسى الذى لا خلاف عليه بين الشيعة والسنة ولا يجرؤ فريق منهما على تجاوزه، ويلفت النظر فى الشريعة الإسلامية ذلك التساهل فى الخلافات حول الفروع، فلم يحدث أن أدت هذه الخلافات إلى انقسامات بين طوائف المسلمين، والقاعدة التى يؤمن بها الجميع أن المسلمين ماداموا متفقين فى أصول الشريعة فإن الخلافات فى الفروع من الأمور التى يرحبون بها، لأن فيها رحمة وتوسعة على الناس (اختلاف أمتى رحمة)، وقد أدى ذلك إلى حيوية تشريبية فى الفكر الدينى ليس لها مثيل، وكذلك لا نجد مثيلاً لما نجده عند المسلمين من اعتبارهم القرآن هو الدستور الأساسى، وهذا ما أدى إلى الوحدة فى المجتمع الإسلامى على رغم الفوارق العرقية واللغوية. هذه الوحدة تتجلى فى وحدة الشريعة - مع اختلافات فى التفاصيل والفروع غير الجوهرية - ووحدة الحضارة، ووحدة الموقف تجاه الشريعة ذاتها، فلو أن أحداً أنكر صلاحية الشريعة ودعا إلى عدم الالتزام بها فإن عمله هذا كفر ومروق. لأن احترام الشريعة هو أساس التفكير الإسلامى، مع إدراك حقيقة أن الاختلافات فى التفسير والفتوى إثراء للشريعة وليس خروجاً عليها.

فالشريعة الإسلامية يميزها أولاً: أنها ذات صبغة عملية، وثانياً: أنها ترفض التنطع فى الدين أى المبالغة فى التشدد، وذلك لأن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان يدعو إلى التيسير ويوصى صحابته دائماً بقوله (يسروا ولا تعسروا) ويقوله (هلك المتنطعون) وهذه ميزة جعلت الإسلام ينتشر بسرعة بين أصحاب الثقافات المختلفة.



باحث آخر فى الحضارة الإسلامية هو البروفيسور آدم متز وهو أستاذ ألماني اهتم بدراسة التصوف والطرق الصوفية ومعتقداتها، وقد أشار إلى ملحوظة مهمة، وهى ظهور أصوات تطالب بحق المرأة المسلمة فى تولى المهام الكبيرة، وقد اشتدت هذه الدعوة ابتداء من عام ٣٠٠ هجرية. وكان من النساء عالمات بالدين، يقبل الناس على دروسهن ويذكر منهن عالمة جلييلة هى (ستيتة بنت القاضى أبى عبد الله الحسين بن إسماعيل ضبى)، وكان أبوها قاضياً، كما كان ابنها قاضياً، وكانت تدعى (أم الواحد) وتذكر المراجع عنها أنها كانت عالمة فاضلة من أكثر الناس معرفة بالفقه الشافعى، وكان العلماء يلجئون إليها طلباً للفتوى، كما كانت من رواة الحديث وتوفيت عام ٣٧٧ هجرية. ويذكر سيدة أخرى هى (أم الفتح بنت القاضى أبى بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة) توفيت عام ٣٩٠ هجرية وكان العلماء يجلسون إليها ليأخذوا عنها العلم، وكانت مشهورة بالعقل والفضل. ومن الفقهاء من أجاز للمرأة تولى القضاء فتقضى بما تصح شهادتها فيه وأشهر هؤلاء الفقهاء أبو حنيفة، أما الطبرى فقد قرر أن المرأة يجوز لها تولى منصب القاضى وتحكم فى جميع أنواع القضايا دون تفرقة.

ويشير الباحث الألماني آدم متز إلى أن الشريعة أباحت للرجل أن يجمع بين أربع زوجات، ولكن المراجع تشير إلى أن أهل الطبقة الوسطى فى المجتمع الإسلامى كانوا يكتفون بزوجة واحدة، ويحكى عن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى أنه كان يدعو إلى الاكتفاء بزوجة واحدة وينقل خطبة له ألقاها على جمع من الشيوخ قال فيها (اقبلوا بعض الأعمال عن نسائكم، والزموا الواحدة، ولا تكثروا فينغنص ذلك عيشكم، وتعود المضرة عليكم، فحسب الرجل واحدة).

ولهذا الباحث الفضل أيضاً فى الكشف عن مدى التقدم الحضارى الذى حققه المسلمون حين أحسنوا فهم دعوة دينهم إلى العمل والتقدم وتحسين الحياة. فقد كانت صناعة الملابس فى الدولة الإسلامية أرقى الصناعات، وكان المسلمون يحرصون على ارتداء ملابس حسنة، وعلى تجميل مساكنهم.

وللدكتور محمود حمدى زقزوق كتاب مهم بعنوان (الإسلام فى مرآة الغرب) فيه فصل كامل عن المستشرق ليوبولد فايس Leopold Weiss وهو مفكر وكاتب ولد فى النمسا عام ١٩٠٠، وبعد أن قام بجولة فى العالم الإسلامى فى الفترة من ١٩٢٢ حتى ١٩٢٦. درس خلالها المجتمعات الإسلامية

ووجد أن النظرة إلى الحياة فيها تختلف اختلافا أساسيا عن النظرة الأوروبية للحياة، فقاده ذلك إلى البحث في تعاليم ومبادئ الإسلام. وقد رأى الاختلاف الكبير بين ماضى الإسلام وحاضره، فانشغل بالبحث عن أسباب تخلف العالم الإسلامى على الرغم من الإمكانيات الكبيرة فيه والمبادئ الدافعة للتقدم فى الإسلام، وانتهى إلى أن هناك سببا واحدا للانحلال الاجتماعى والثقافى الذى أصاب المسلمين، وهو ابتعادهم عن روح الإسلام، وفى وصف رحلته للبحث عن الحقيقة فى المجتمعات الإسلامية يقول: إنه تناقش مع كثير من المفكرين المسلمين فى جميع البلاد الإسلامية من طرابلس إلى الهند، ومن البوسفور إلى بحر العرب، فوجد الحال السائد بين المسلمين يغير الشجن فى نفسه، ويقول: حتى إننى - وأنا غير مسلم - أصبحت أتكلم إلى المسلمين مشفقا على الإسلام من إهمال المسلمين وتراخيهم. ولم يكن هذا التطور واضحا فى نفسى حتى جاء يوم من أيام خريف عام ١٩٢٥ وأنا فى جبال أفغانستان، وتلقانى حاكم إدارى شاب وبعد مناقشة معه قال لى: (إنك مسلم ولا تعرف ذلك) وأثرت فى نفسى هذه الكلمات، غير أنى بقيت صامتا. وما عدت إلى أوروبا عام ١٩٢٦ وجدت أن النتيجة المنطقية لما أشعر به من ميل إلى الإسلام أن أعتقد الإسلام. ويقول: إن ما جذبنى إلى الإسلام هو ذلك البناء الإسلامى الشامخ من التعاليم الأخلاقية ومنهج الحياة العملية. ويبدو لى الإسلام بناء تام الصنع وأجزاؤه ينتم بعضها بعضا. فليس فيه شىء يمكن الاستغناء عنه، وليس فيه نقص. وكل تعاليمه وفرائضه وضعت فى مواضعها المناسبة.

وبعد أن أسلم اتخذ لنفسه اسم (محمد أسد) واكتسب شهرة واسعة فى الغرب وفى العالم الإسلامى أيضا بعد أن ترجم له الدكتور عمر فروخ فى سنة ١٩٤٦ كتابه (الإسلام فى مفترق طرق) وله مؤلفات أخرى يشير إليها الدكتور زقزوق مثل (الطريق إلى مكة) الذى صدر سنة ١٩٥٥ باللغة الألمانية، و(أصول الفقه الإسلامى) باللغة الإنجليزية. وقد تفرغ محمد أسد لدراسة القرآن والحديث واللغة العربية وتاريخ الإسلام، وقضى أكثر من خمس سنوات فى السعودية وعاش فى البقاع التى سار فيها النبى - صلى الله عليه وسلم - وبعد هذه الرحلة أعلن (أن الإسلام بمبادئه الروحية والاجتماعية لا يزال أعظم قوة تنهض بالهمم، على الرغم من العقبات التى تعوق هذا النهوض. وهذه العقبات من صنع المسلمين، ولهذا تجمعت آمالى حول بعث الإسلام من جديد.

وقد ترجم الدكتور زقزوق إجابات محمد أسد عن أسئلة وجهها إليه الدكتور جرهارد تشينسى Gerhard Szeszny وهو أستاذ ألمانى لا ينتمى إلى أى دين من الأديان ولكنه أصدر كتابا بعنوان (إجابات الأديان) يتضمن إجابات عن ٣١ سؤالا وجهها إلى المختصين فى الديانات: اليهودية، والكاثوليكية، والبروتستانتية، والإسلام، والهندوسية، والبوذية. والدكتور جرهارد تشينسى على الرغم من أنه لا يؤمن بدين من هذه الأديان فإنه يعترف فى كتابه بأنه مقتنع بأن الإنسان متدين بطبعه، وأنه كائن لا يكف عن توجيه أسئلة لا يمكن الإجابة عنها إلا عن طريق عقيدة دينية.

أما ليوبولد فايس (محمد أسد) فكانت إجاباته عن الأسئلة تتضمن رؤيته للإسلام وللحضارة الإسلامية ويمكن تلخيص إجاباته فيما يلي :

● من وجهة النظر الإسلامية فإن كل ما يحدث وما يمكن أن يحدث هو نتيجة الفعل الإلهي الخلاق. ولذلك فليس في الإسلام تفرقة بين ما هو في الطبيعة وبين الإرادة الإلهية. والقرآن يسمى ما في الطبيعة (عالم الشهادة) أما ما يسميه (عالم الغيب) فهو ما يقع خارج نطاق الإدراك الإنساني، وهذا العالم سينكشف للإنسان في الحياة الأخرى، وكل شيء من الله، فهو (القيوم) أى إن وجوده قائم به.

● أن تعاليم الإسلام تؤكد على ضرورة النظر في خلق الإنسان، والطبيعة، لكي يتعرف إلى القدرة الخلاقة لله، وهذا ما جعل المسلمين يتفوقون في علوم الطبيعة والفلك بدافع من القرآن الذي يدعوهم إلى النظر في ظواهر الطبيعة وحركة الأفلاك. ومع ذلك فإن العلم وحده لا يكفي لحياة الإيمان، ولكن بالبصيرة يهتدى الإنسان إلى الخير والشر.

● الإسلام يدعو إلى حوار بين أصحاب الديانات السماوية، والقرآن يؤكد هذه الدعوة كما في الآية: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران ٦٤). وبهذا الحوار يواجه أصحاب الديانات السماوية النزعات المادية التي تهدد العالم، والميزة الكبرى في الإسلام أنه يحترم جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ويحرم على المسلمين أن يتفوهوا بكلمة فيها إهانة لنبي من الأنبياء، ولذلك فإن المسلمين ينتظرون من أصحاب الديانات الأخرى أن يتحدثوا باحترام عن النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -، وإذا لم يكن في وسعهم الاعتراف بأنه نبي - مثلما يعترف المسلمون بإبراهيم وموسى وعيسى وسائر الأنبياء دون أن يفرقوا بين أحد منهم، فإنه ينبغي عليهم على الأقل أن يذكروا اسمه بالتقدير، وهذا ما يجعل الأديان الثلاثة يقترب بعضها من بعض وتزول الكراهية والعداوة والحساسية بين أهل الأديان.

● والإسلام يقبل الاختلاف والتعدد بين البشر، وعقولهم، وتوجهاتهم. ولا يدعو المسلمين إلى الابتعاد عن غير المسلمين وعدم مخالطتهم، بل يدعوهم إلى التعاون معهم وترك الخلافات القائمة بين الديانات والله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون، والقرآن يقول: ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُومُورٌ لَهَا ﴾ (البقرة ١٤٨) ومن يدرس الإسلام يجد أن التعايش والتعاون مع أصحاب الديانات الأخرى يمثل واجبا دينيا وأخلاقيا.



والحرب في الإسلام محكومة بقواعد حددها القرآن. فالحرب العدوانية محرمة على المسلمين. ومبررات الحرب تنحصر في حالة الدفاع، وحالة نكث العهود وظهور بؤادر الخيانة. وفي

حالة الدفاع يحرم الإسلام تجاوز الحدود الكافية لرد العدوان كما في الآية: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُواكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة ١٩٠) والآية: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَلَمُوا عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١﴾ (المتحنة ٨ - ٩) والآية: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِمْ مِمَّا أَعْتَدَى عَلَيْهِمْ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة ١٩٤) والآية: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُواكُمْ وَالْفُؤَادَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمُ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (النساء ٩٠). والآية: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (الأنفال ٦١).

هذه الآيات تدل على أن الإسلام يرفض البدء بالاعتداء، ويؤكد أن الحرب لا تكون إلا لرد الاعتداء، ويكون الرد بقدر الاعتداء ليس أكثر. وإن لجأ العدو إلى السلام فعلى المسلمين أن يقبلوا السلام. وهذه الحدود تمثل مفهوما حضاريا راقيا جدا يتناقض مع ما يردده المستشرقون من أن مفهوم (الجهاد) في الإسلام مفهوم عدواني. وأن الدعوة إلى الجهاد هي دعوة إلى الاعتداء على الآخرين.

أما الحرب في حالة نكث العهود وظهور بؤادر الخيانة فإن الإسلام يضع لها حدودا كما في الآية: ﴿وَمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَاِذْ يَأْتِيهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ (الأنفال ٥٨) والآية: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ﴾ (التوبة ١٢).

أما الحالة الثالثة التي يبيح فيها الإسلام الحرب فهي حالة وجود اعتبارات تتعلق بسلامة الدولة، والقضاء على الفتنة، وتأمين الدعوة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أُنتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة ١٩٣).

ولم تتجاوز حروب الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذه الحالات سواء في حروبه مع مشركي العرب، أم مع اليهود والغساسنة والروم في الشام. فالمشركون العرب هم الذين بدعوا بإيذاء الرسول وأصحابه وحاولوا قتله في مكة، واستمروا بعد الهجرة في إيذاء المستضعفين الذين بقوا في مكة، وحاولوا فتنهم عن دينهم بالتعذيب، وحينئذ أذن الله بقتال أهل قريش ردا على اعتدائهم على الإسلام والمسلمين. وفي هذا يقول الله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج ٣٩) وبعد أن قامت قريش بتحريض القبائل على المسلمين واشتركوا معهم في غزوة الأحزاب كان لا بد من قتال المشركين كافة لأنهم جميعا شاركوا في الاعتداء على المسلمين فنزل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة ٣٦).

أما الحرب مع اليهود فكانت بسبب خيانتهم للعهد، فقد سالمهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعقد معهم معاهدات عدم اعتداء، وحافظ على عهده معهم، ولم يحاربهم إلا بعد أن بدءوهم بالخيانة ونكثوا العهد في غزوة أحد في السنة الثالثة للهجرة، وبعد أن تكررت خيانتهم في غزوة الأحزاب في السنة الخامسة حينما اجتمع المشركون من القبائل المختلفة للقضاء على الإسلام. فبعد أن انتصر المشركون في غزوة أحد نكث يهود بني النضير عهدهم مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتحالفوا مع قريش، وخرج زعيمهم كعب بن الأشرف في أربعين راكبا إلى مكة للانضمام إلى المشركين، فقالت لهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأخرجهم من ديارهم. وفسر القرآن ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر ٤) أى لأنهم هم الذين بدءوا بالشقاق ونكث العهد. في غزوة الأحزاب حينما كان المسلمون في أخرج المواقف نكث يهود بني قريظة عهدهم مع الرسول وساعدوا المشركين، فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم لقتالهم بعد أن فرغ من غزوة الأحزاب. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقَاتَلُوا وَتَأْسَرُوا فَرِيقًا﴾ (الأحزاب ٢٦) ويقصد الذين ساعدوا المشركين في غزوة الأحزاب، وهم يهود بني قريظة.

وأما نصارى الفساسنة والروم فإن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يقاتلهم في غزوة مؤتة إلا بعد أن قتلوا بعض من دخل في الإسلام من أهل الشام، فكان ذلك بدءا بالاعتداء ومحاربة للإسلام. ومن أخلاقيات الحرب في الإسلام أنه لا يجوز قتال الذين بدءوا بالخيانة ونكثوا العهد إلا بعد إخطارهم بأن المسلمين سينقضون العهد ويقابلون عملهم بالمثل إذا أصروا على خيانتهم، وذلك التزاما بالآية: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْذِرْهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُخَافِينَ﴾ (الأنفال ٥٨). ومقتضى الأمر الإلهي للمسلمين إذا ظهر من قوم بوادى خيانة - وكان بينهم وبينهم عهد - فلا بد من إخبارهم بالنقض ولا يجوز مفاجأتهم بالحرب وإلا كان ذلك غدراً يتعارض مع أخلاقيات الإسلام. ويحذر الله من ذلك بأن الله لا يحب الخائنين الذين ينقضون العهود. والله لا يحب الخيانة حتى مع الكفار.

هكذا قامت الحضارة الإسلامية على أسس أخلاقية فرضها الله على المسلمين، وجوهر هذه الأسس أن الله لا يحب المعتدين. وهذه هي عظمة الإسلام ودرجة الرقى التي لم تصل إليها دول كبرى في العصر الحديث بعد ١٤ قرناً من نزول القرآن!



وسوف نظل نذكر بالتقدير الأستاذة الألمانية الكبيرة زيغريد هونكه الباحثة المتميزة في العلوم الدينية، وأول كاتبة ألمانية في العصر الحديث قامت بالدفاع عن الإسلام وتفنيد الأحكام المسبقة

والملفقة ضده في الغرب. وكان أول كتاب لها بعنوان (الرجل والمرأة) تناولت فيه مشكلات اجتماعية خاصة بالأسرة والعلاقات في المجتمع الألماني، وكتابها الثاني كان أهم مؤلفاتها وأكثرها توزيعاً وكان بعنوان (شمس الله تسطع على الغرب) صدر سنة ١٩٦٠ واشتهر هذا الكتاب حتى بلغت عدد النسخ المباعة منه حتى يوم وفاتها مليون نسخة في ألمانيا وحدها، وترجم إلى ١٧ لغة كان آخرها اللغة اليابانية.

وعلى الرغم من أن (زيجيريد هونكة) عاشت ٨٣ عاماً ونشرت على مدى حياتها الطويلة عدة كتب تناولت قضايا الشعوب، والفلسفة، وعلم الأديان المقارن، فإنها فاجأت النقاد بعد سنوات بكتاب بعنوان (ليس الله كما يزعمون) كشفت فيه الأحكام المسبقة ضد العرب والمسلمين بأسلوب علمي ناقشت فيه الادعاءات التي يرددها الغربيون عن الإسلام والتي تعكس نزعة الاستعلاء الغربي تجاه الحضارات الأخرى، كما تعكس ضيق الأفق ورفض كل ما يخالف الآراء السائدة في الغرب. وقد تحملت بسبب هذا الكتاب الكثير من الهجوم، ولكن الكتاب صمد بما فيه من دراسة عميقة لجذور العداء للإسلام في الغرب، واعتمدت في ذلك على مصادر عديدة لا يرقى إليها الشك على مدى قرون. وأخيراً نالت شهرة كبيرة واعترف الجميع بأنها صنعت تاريخاً للعلاقات بين الشرق والغرب على أساس موضوعي. وحصلت على جائزة (كانط وشيلر) وهما من أكبر الجوائز في ألمانيا، كما حصلت على وسام الاستحقاق من مصر قدمه لها الرئيس حسنى مبارك، وبعد ذلك نالت التكريم والأوسمة من رؤساء الدول والجامعات في الدول العربية والإسلامية والأوروبية.

وفى آخر مقابلة صحفية جرت معها عام ١٩٩٩ قبل رحيلها قالت: كنت كلما اكتشفت أخطاء وآراء وغير دقيقة عن الإسلام أشعر بضيق وانزعاج بل بغضب شديد، وكان ذلك يدفعنى دائماً إلى تأليف كتاب جديد لكشف الحقيقة.

وقالت أيضاً: كنت أسمع وأقرأ دائماً أن الحضارة الغربية مدينة لليونان والرومان وحدهم، حتى توصلت إلى الحقيقة وهي أن الغرب يعمل على إنكار فضل المسلمين والعرب على الحضارة الغربية، فقد قامت نهضة أوروبا على العلوم التي كانت مزدهرة في جامعات العالم الإسلامى، وعلى ترجمة الكتب والمراجع التي كانت تخر بها مكتبات المساجد والمكتبات العامة في الدول العربية، وبخاصة في أسبانيا (الأندلس). ولقد اكتشفت سوء القصد فيما يروجه البعض من أن المسلمين لم تكن لديهم علوم أو حضارة أو ثقافة من صنعهم، وأنهم كانوا مجرد سعاة يربد نقلوا الفكر الإغريقي إلى لغتهم ثم نقلها الغربيون بعد ذلك إلى لغاتهم، دون أن يضيف المسلمون إلى العلوم والثقافة الإغريقية أو يقدموا إنجازات خلاقة خاصة بهم. ولم يكن في الغرب من هو مستعد للاعتراف بالتأثير الكبير للحضارة الإسلامية العظيمة والعلوم المتقدمة في العالم الإسلامى في العصور الوسطى التي كانت العصور المظلمة في بلاد الغرب.



وفي نهاية الخمسينات قدمت زيجريد هونكة كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) الذى سبق ذكره ولم يكن كتابا علميا جافا، بل كان متعة جذابة سهلة الفهم، ولذلك انتشر واشتهرت به، ولا يزال هذا الكتاب يستحوذ على إعجاب الباحثين المتخصصين وعامة القراء لما يحتوى عليه من معلومات أساسية موثقة، ويعتبر هذا الكتاب الآن مرجعا أساسيا هو وكتابها الآخر (ليس الله كما يزعمون) الذى ترد فيه على المشككين والجهلة الذين يرددون الأحكام الجاهزة الظالمة للإسلام. وقد نجحت (زيجريد هونكة) فى شرح حقائق الإسلام، وتقديم صورة الإنسان المسلم بعيدا عن زيف النظرة السائدة فى الغرب. وتناولت عدم صحة ما يقال عن الإسلام من أنه يدعو أنصاره لشن الحروب على الآخرين باسم الجهاد، وأن الإسلام يدعو إلى الكسل بحجة التوكل على الله وهذا هو سر تخلف المسلمين، وأنه قائم على اضطهاد المرأة.. إلى آخر الافتراءات السائدة الأخرى. وقد نجحت فى إظهار ثراء الحضارة الإسلامية وأثرها غير المحدود على التطور فى أوروبا فى الطب والهندسة والكيمياء والرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية، كما دعت إلى التفاهم المتبادل بين الغرب والعالم الإسلامى، وكتبت تقول: إن الشهامة والحكمة اللتين تميز بهما السلطان الناصر صلاح الدين برهان تاريخى على عظمة الحضارة الإسلامية، ومن حق المسلمين أن يفخروا بهذا القائد كما يفخر الألمان بالإمبراطور فردريش الثانى الذى كان أول من مد جسرا فكريا عبر البحر الأبيض المتوسط ونقل الكثير من المعارف والإنجازات العلمية من العالم الإسلامى إلى مملكته.

وفى كتاب (شمس الله تسطع على الغرب) تقول (زيجريد هونكة): إن الغرب لم يعرف الأعداد إلا بعد أن تعلمها من المسلمين، فكانت ركيزة للعلوم الطبيعية والاقتصاد والمعاملات فى العالم. ونقل الغرب العلوم التى ابتكرها العلماء المسلمون وبخاصة الرياضيات التى تفوقوا فيها، وكذلك علم الفلك الذى تقدم تقدما كبيرا على أيديهم، وقد شرخوا حركة الأفلاك بشكل منهجى دقيق بناء على الملاحظة العلمية، وهم الذين علموا أوروبا بناء المراصد الفلكية، ونقلوا علم الفلك من مجرد مراقبة شخصية للنجوم إلى علم له فوائده عملية منها: قياس الوقت بدقة وكان ذلك ضروريا للمسلمين لتحديد أوقات الصلاة، وأوائل الشهور الإسلامية وبخاصة بداية ونهاية شهر رمضان، وقد اكتشف البيرونى - العالم المسلم - أن الشمس لا تدور حول الأرض كما كان العلماء الأوروبيون يعتقدون، وأن العكس هو الصحيح والأرض هى التى تدور حول الشمس فيحدث الليل والنهار، وسبق بذلك العالم الأوروبى كوبر نيكوس - بخرمئة عام - العالم الذى ينسب إليه الغربيون كذبا هذا الاكتشاف العلمى. كذلك اثنى المسلمون التراث العلمى الذى نقلوه عن اليونان وكان علما نظريا، فأضاف المسلمون المنهج الحديث القائم على التجربة العلمية المنضبطة. ويجب الاعتراف بأن العلماء المسلمين هم الذين اخترعوا المنهج التجريبي بمعناه الدقيق، وأن المصطلحات العلمية فى علم الكيمياء مثلا نقلها العلماء الغربيون من علماء المسلمين ولا زالت تحمل أسماء عربية.. وقد ذكرت

الكثير من الكلمات العربية التى دخلت فى اللغات العلمية الأوروبية مثل الكيمياء، والكحول، والاثميد، والبنزين، والإكسير، ومئات المصطلحات الأخرى. وشرحت كيف كان المسلمون مبدعين فى الميكانيكا، وتوصلوا إلى أفضل الوسائل لاستخدام المياه فى نقل الحركة، وصممو السواقي والمضخات ومعدات رفع المياه. وفى سنة ٨٨٠ ميلادية قام عباس بن فرناس بأول محاولة لصناعة آلة للطيران فى الجو ولم تكن الفكرة والمحاولة مما يخطر على بال أحد فى الغرب إلا بعد قرون: وقد نجح ابن فرناس فى صناعة آلة مكسوة بالقماش والريش قادرة على البقاء فترة زمنية فى الجو. وكان علماء المسلمين أول من اكتشفوا البارود قبل أن يتوصل إليه العالم الغربى برتولد شفارتس بفترة طويلة. وتمتلى المراجع العربية بالأدلة على معرفة المسلمين للمواد المتفجرة، والأسلحة النارية، ومحركات الصواريخ، وكان المسلمون فى الأندلس أول من استخدم المدفع فى التاريخ. وكان المسلمون هم الذين قاموا بتصميم مصانع الورق بطرق أفضل مما كانت تصنعه به الصين وأنشئوا صناعة كاملة للورق قبل إنشاء أول مصنع لإنتاج الورق فى ألمانيا بستة قرون كاملة.



ودلت (زيجريد هونكة) على أن العالم المسلم ابن الخازن هو مؤسس علم البصريات، وأن ابن سينا أشهر الأطباء فى التاريخ العلمى للبشرية، وهو أول من اكتشف أن السرطان يبدأ فى موضع من الجسم وينتشر بعد ذلك، كما كان أول من اكتشف مرض السل وأنه مُعد، وأن التعرض لأشعة الشمس خطر على المصابين به، ووصف له الدواء. كذلك فإن الطبيب والفيلسوف ابن رشد هو الذى اكتشف بعض الأمراض المعدية والحميات، واكتشف أن الإصابة ببعضها تعطى الجسم مناعة منها مدى الحياة، واكتشف علاجاً لمرض الطاعون، فى الوقت الذى قرر فيه القيصر الألمانى ماكسيميليان الأول بعد ذلك بمائتى عام أن مرض الطاعون عقاب من الله ليس له شفاء. وبينما كان أطباء الغرب يقولون: إن تكوّن الصديد فى الجروح ضرورى لشفائها كان ابن سينا قبل ذلك بقرون يعلم تلاميذه أهمية تغادى تكوّن الصديد ويعالجه حتى يختفى بين ليلة وأخرى. وكذلك كانت المضادات الحيوية من اكتشافات العلماء المسلمين وكانوا يستخدمون المواد العفنة المكونة للبنسلين ويصنعون منها المراهم والمساحيق، وكانوا يعالجون به الالتهابات وترتكز شهرة الجراح الفرنسى الكبير إمبرواز دى بارى على نجاحه لأول مرة عام ١٥٥٢ فى إيقاف نزيف الأوعية الدموية الكبيرة، وزعم أنه هو صاحب هذا الاكتشاف، بينما كان الجراح المسلم أبو القاسم هو أول من درس هذا النوع من العمليات قبل الفرنسى بستمائة عام وكان يطبقها مما أدى إلى تحسن مستوى عمليات بتر الأعضاء. وكان تأسيس أول مستشفى فى ألمانيا عام ١٥١٠ بينما كانت المستشفيات فى العالم الإسلامى موجودة قبل ذلك بثمانمائة عام وكانت أفضل من مثيلاتها فى الغرب التى أنشئت بعد ذلك بقرون.



وتناولت (زيجريد هونكة) فضل المسلمين على الغرب في التعليم والثقافة، وذكرت أن الكنيسة استمرت في استخدام اللغة اللاتينية التي لم يكن يفهمها عامة الشعب، وظلت أكثر من ثمانمائة عام ترددها في الصلوات، بينما كان المسلمون يؤدون صلواتهم بلغة يفهمونها، وبينما كان المسلمون قد تعلموا من رسولهم دعوته إلى العلم كان ٩٥٪ من سكان أوروبا أميين في العصور الوسطى. وكان شباب المسلمين يدرسون القرآن والحديث والنحو والبلاغة والأدب والتاريخ والجغرافيا والمنطق والرياضيات وعلم الفلك ولم يكن الغربيون يتعلمون شيئا من ذلك. وسبق المسلمون الغرب في إنشاء الجامعات منذ القرن التاسع الميلادي، وكانوا سباقين في منح الشهادات والدرجات العلمية وتقسيم الجامعة إلى كليات ووضع مناهج لكل كلية. وكانت الكتب منتشرة، وكان من علامات التفوق في المجتمع الإسلامي أن يمتلك الإنسان مجموعة من الكتب القيمة النادرة، وكانت المكتبة الفاطمية أجمل وأكمل مكتبة في التاريخ إذ كانت تحتوى على مليون و٦٠٠ ألف مجلد منها ما يزيد على ٦٥٠٠ مجلد في الرياضيات، و١٨ ألف مجلد في الفلسفة، وفي القرن العاشر كانت مكتبة الشخص من الطبقة المتوسطة تشتمل على عدد من الكتب تفوق ما في مكتبات الغرب جميعها!

وتقول (زيجريد هونكة) إن أشهر شعراء الغرب أخذوا من الشعراء المسلمين، وبخاصة العباقرة من أمثال دانتي وبتراركة، وكان دانتي دارسا للشعر العربي وللأساطير والفلسفة والتصوف في الثقافة الإسلامية. وكان بتراركة دارسا للشعر الكلاسيكي عند المسلمين. وكذلك نقل الغربيون عن المسلمين الموسيقى والطرب، كما نقلوا التسامح والفروسية. والتسامح عند المسلمين يختلف عن موقف اللامبالاة تجاه الدين كما يظهر في الغرب، والجدور الطبيعية لتسامح المسلم، بل وكرمه تجاه العدو ومن يحمل فكرا مغايرا لفكره، نجدها في صورة الفتوة عند العرب، وقد انتقلت هذه الروح العربية إلى الفروسية في الغرب. وكذلك كان للمسلمين الفضل في التجارة على أسس اقتصادية وكانت الإمبراطورية الإسلامية مركزا للتجارة العالمية، كما كانت لدى المسلمين موهبة إدارية جبارة، وشيدوا جهازا إداريا نموذجيا في إمبراطوريتهم، أصبح مثالا قلده إمبراطوريات الغرب حتى بنظام الجمارك الدقيق الذي وضعه المسلمون ونقله الإمبراطور فردريش الثاني.

هكذا يجد الإسلام دائما من يقول عنه كلمة حق وسط ضباب الظلم والكذب والعداء في الغرب. وسبقني دائما الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة ٤٠).

## كتب للمؤلف

- البحث عن المستقبل - المكتبة الأكاديمية - ١٩٩٣.
- تاريخ ليس للبيع - الطبعة الأولى - المكتبة الأكاديمية - ١٩٩٣.
- الطبعة الثانية - دار المعارف - ١٩٩٧.
- الأمية الدينية والحرب ضد الإسلام - الطبعة الأولى - دار المعارف - ١٩٩٥.
- الطبعة الثانية - هيئة الكتاب - ١٩٩٧.
- الغرب والإسلام - الطبعة الأولى - دار المعارف - ٢٠٠٠.
- الطبعة الثانية - دار المعارف - ٢٠٠١.
- المصريون في المرآة - سلسلة اقرأ - دار المعارف - ٢٠٠٠.
- الطبعة الثانية - هيئة الكتاب - ٢٠٠٢.
- الأقباط في مصر والمهجر - الطبعة الثالثة - دار المعارف - ٢٠٠٣.
- معجزات الخلق والخالق - دار المعارف - ٢٠٠١.
- رحلة إلى الصين - دار المعارف - ٢٠٠٢.
- صناعة العداء للإسلام - الطبعة الأولى - دار المعارف - ٢٠٠٢.
- الطبعة الثانية - دار المعارف - ٢٠٠٣.
- أمريكا.. رؤية من الداخل - دار المعارف - ٢٠٠٣.
- هيكل بين الصحافة والسياسة - دار المعارف - ٢٠٠٣.
- الشيعة والسنة واختلافات الفقه والفكر والتاريخ - الطبعة الأولى - دار المعارف - ٢٠٠٤.
- الطبعة الثانية - دار المعارف - ٢٠٠٥.